القدس أمانة عمر في انتظار صلاح الدين

أ.د/ محمد عمارة (*)

وجاء صلاح الدين:

● كانت طاقات مصر وإمكاناتها -وهي هائلة- قد جمدت وعزلت وذبلت في حقبة الضعف الفاطمي التي امتدت نحو قرن من الزمان، وكان على صلاح الدين إحياء وتوظيف هذه الإمكانات للانتصار في الصراع ضد الصليبيين.

فبعد أن طوى صفحة الخلافة الفاطمية، وأعاد مصر إلى الولاء للخلافة العباسية، خاض معركة كبرى وطويلة على الجبهة الفكرية والثقافية، ليحل الفكر السني محل المذهبية (الإسماعيلية - الباطنية).. فبدأ إقامة (المدارس السنية): (الناصرية).. و(القمحية).. و(السيوفية).. إلخ.. والتي بُني منها في عهده ست مدارس، كانت كل منها مؤسسة ضخمة وجامعة.. حتى ليصف الرحالة ابن جبير (٥٤٠ - ٦١٤هـ / ١١٤٥ - ١٢١٧م) بناء إحداها -(الناصرية)- فيقول:

«إنها مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة، ولا أحفل بناء، يخيل لمن يتطوَّف عليها أنها بلد مستقل بذاته، وبإزائها الحمام، إلى غير ذلك من مرافقها...».

ويحكي عن سخاء صلاح الدين في الإنفاق عليها، وقوله للقائم على عمارتها: «زد احتفالًا وتأنقًا، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله»! ولقد ملأ الفكر السني لهذه المدارس -التي كانت تدرِّس مذاهب السنة الأربعة- الفراغ الفكري الذي كان يملؤه المذهب (الإسماعيلي - الباطني)، فحلَّ الانتماء الفكري بين (الأمة) و(الدولة) محل (القطيعة والانفصام)، الأمر الذي مثَّل إحياءً وازدهارًا للطاقة المصرية في هذا الميدان.

ولقد بلغ من التزام صلاح الدين وتشدده في هذا الأمر، الحد الذي أغلق فيه الأزهرَ -ذا

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

المناهج الشيعية- خمس سنوات، حتى تغيرت مناهجه إلى الفكرية السنية.. ومع (الدولة) والعلم والفكر والتعليم تحول القضاء إلى المذاهب السنية أيضًا.

● وعلى الجبهة الاقتصادية، حل (الإقطاع الحربي) في استثمار الأرض الزراعية محل نظام (الالتزام)، وهو الذي يمكن أن نسميه، بلغة عصرنا: (اقتصاد الحرب والمعركة)، وبلغة الفقه الإسلامي: النظام الشبيه (بوقف الأرض على الجهاد في سبيل الله)! فقسمت أرض مصر إلى ثلاث وعشرين منطقة ووحدة اقتصادية أصبحت إقطاعات مخصصة للإنفاق على فرق وأمراء الأجناد!.. فتم الاستنفار للطاقات الاقتصادية كما تم الإحياء على الجبهة الفكرية.. وتحقيق الولاء والانتماء بين المحكومين والحكام.

● وفي التمهيد للمعارك الفاصلة، بإحكام الطوق حول الكيانات الصليبية المزروعة قسرًا في وطن الأمة بدأ صلاح الدين أُولى غزواته ضد الحاميات الصليبية في (حصن الكرك)، جنوب فلسطين، لتوسيع وتأمين الطريق الذي يربط مصر بالمشرق، إحكامًا لطوق الحصار حول الكيانات الصليبية.

وفي سبيل تحقيق ذلك قاد صلاح الدين أربع غزوات في الأعوام ٥٦٨ و٥٧٩ و٥٨٠ و٥٨٣هـ...

● ولإعادة الوحدة إلى الجبهة الشرقية، التي أصابها التفكك بموت نور الدين الشهيد، عقد صلاح الدين تحالفًا بين أمراء (الموصل) و(حلب) و(الجزيرة) و(أربيل) و(كيفا) و(ماردين) و(قونية) و(أرمينيا) وشارك معهم في هذا التحالف الذي نص على أن لا يحارب بعضهم بعضًا.. ولم يتردد في استخدام القوة ضد من خرج على هذا الاتفاق - كما صنع مع أمير (حلب) ٥٧٩هـ - ١١٨٣م.

● وتحصينًا للجبهة العامة، المكرسة كل طاقاتها وإمكاناتها وجميع ثغورها لتحقيق استراتيجية التحرير بلغ صلاح الدين حدَّ التشدد ضد كل الفكريات والفلسفات والأيديولوجيات المخالفة للسنة -عقيدة الأغلبية- وأيديولوجيتها، فقضى على دعاة (الإسماعيلية - الباطنية).

وأمر ابنه -حاكم حلب- بإعدام فيلسوف (الغنوصية - الإشراقية) السهروردي -المقتول (٥٤٩ - ٥٨٧هـ - ١١٥٤ - ١١٩١م) لما أثاره في مناظراته مع الفقهاء من بلبلة فكرية كانت تخلط الأوراق بين الحضارات والثقافات فتضع (زرادشت) و(أفلاطون) مع نبي الإسلام؟! وتخلط محاورات أفلاطون مع الوعي الكلداني بالقرآن الكريم.

الأمر الذي يميع الجبهة الفكرية باعتماد منهاج (الأشباه والنظائر)، في وقت يحتاج فيه الصراع مع الآخر إلى اعتماد منهاج (الفروق) للتميز عن الآخر، ولملء الوجدان بالكراهة له، كشرط من شروط (التعبئة) والانتصار.

النصر في (حطين):

وعبر هذه الإنجازات السياسية والفكرية، والاقتصادية، والعسكرية، قاد صلاح الدين الأيوبي جيشه، ذلك الذي أقام مع قادته وجنوده علاقة أبوية حميمة، إلى المعركة الكبرى التي غيَّرت اتجاهَ الخط البياني للصراع مع الصليبيين، معركة (حطين)، في ٢٢ ربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ أول يوليو سنة ١١٨٧م، أي بعد تسعين عامًا من بدء اجتياح الصليبيين لديار الإسلام!

على أرض (حطين) -في فلسطين- حشد

الصليبيون ثلاثة وستين ألفًا من الفرسان والمشاة، وأدرك الفريقان المعركة المصيرية -بلغة عصرنا- وبلغة (ابن شداد) (٦١٣ - ٦٨٤هـ/ ١٢١٧ - ١٢٨٥م) مؤرخ ذلك العصر: فلقد «علمت كل طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس معدومة النفس»؟!..
فحطين هي معركة القدس، التي هي رمز كل الصراع؟!

وانضمت إلى حرارة صيف يوليو: حرارة النيران التي أشعلها جيش صلاح الدين في الحشائش القريبة من الحشد الصليبي.. وأيضًا الحرارة المتولدة من حدة الصراع وتلاحم المتقاتلين، حتى ليتحدث (مكسيموس مونروند) عن «النبال المتطايرة في الهواء، تطير مثل طيران العصافير، محرقة بحرارتها! وماء السيوف مرأى الدماء! جامد في وسط المعركة، يغطي الأرض كمياه المطر»!

وعندما سقطت خيمة الملك الصليبي (جاي لوزنجان)، مؤذنة بهزيمة جيشه، ترجَّل صلاح الدين الأيوبي عن ظهر جواده وسجد، وقبَّل الأرض شكرًا لله على هذا الانتصار، الذي فتح له الطريق إلى القدس الشريف!

وفي وصف هذا الذي حدث يوم حطين، يقول المؤرخ (أبو شامة) (٥٩٩ - ٦٦٥هـ/ ١٢٠٢ - ١٢٦٧م): «إن من شاهد القتلى -الفرنج- قال: ما هناك أسير!.. ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل! ومنذ أن استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى المسلمين يوم كيوم حطين»!

● وبعد جولاتٍ حرَّر فيها صلاح الدين العشرات من القرى والمدن والقلاع والحصون، تقدم جيشه فحاصر القدس الشريف، فهي رمز كل الصراع، وبها يذكر الشعر -إعلام العصر- عند كل انتصار، وعقب كل معركة، حتى ليقول (العماد الكاتب) لصلاح الدين، عقب انتصاره في (غزة):

غزوا عقر دار المشركين بـ(غزة) جهارًا، وطرف الشرك خزيان مطرق
وهيجتَ للبيت المقدس لوعة يطول بها منه إليك التشوق
هو البيت إن تفتحه، والله فاعل فما بعده باب من الشام مغلق!

نعم، كانت القدس هي (الرمز)، و(القصد)، و(المفتاح).

فتح القدس

وفي يوم الأحد ٢٠ سبتمبر سنة ١١٨٧م بدأ حصار صلاح الدين لأسوار المدينة المقدسة، وعسكر في ذات المكان الذي اقتحمها منه الصليبيون سنة ١٠٩٩م!، وأخذ يضيق عليها الخناق حتى يجبر حاميتها الصليبية -البالغة ستين ألفًا- على التسليم صلحًا، كي لا تتعرض مقدسات المدينة للدمار، وكان الصليبيون، في المفاوضات إبان هذا الحصار، يهددون بمعركة يائسة يدمرون فيها هذه المقدسات، فقالوا لصلاح الدين:

«إننا إذا يئسنا من النجاة من سيوف جندك فإننا:

- سنهدم المعبد، والقصر الملوكي، وننقض حجارتها حتى الأساسات!
- وسنحرق الأمتعة والنفائس والكنوز والأموال الموجودة في خزائن المدينة!
- وسنهدم جامع عمر، والصخرة المقدسة، اللذين هما موضوع ديانتك!
- وسنقتل ما لدينا من أسرى المسلمين المحبوسين في سجون المدينة منذ سنوات،

وعددهم خمسة آلاف أسير !

– وسنذبح نساءنا وأولادنا بأيدينا حتى لا يقعوا في أسر المسلمين !

– وبعد أن تصير المدينة المقدسة كيانًا من الرديم، ومدفنًا واسعًا سنخرج للقتال قتال اليائس من الحياة، الذي لا أمل لديه في النجاة.. فامنحنا الأمان، نسلمك المدينة دون أن يمسَّها أحد من الطرفين بسوء ! فاستجاب صلاح الدين، ومنحهم الأمان، فخرج الغزاةُ اللاتينُ من المدينة بما يملكون. وبقي فيها أبناؤها من المسلمين والنصارى الشرقيين. وتحررت القدس في ذكرى إسراء الرسول ﷺ من مكة إليها –في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ– ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م، دون إراقة قطرة دم واحدة، وهي التي سبحت فيها خيول الصليبيين بدماء المسلمين، بمسجد عمر قبل تسعين عامًا ؟ !

• وبعد فتح القدس، لم يبق –كما قال الشاعر– «باب من الشام مغلق» !

لكن أوروبا لم تتراجع عن تجييش الجيوش لمحاربة صلاح الدين، حتى لقد فرضت حكوماتها على شعوبها ضريبة قتال سموها (عشر صلاح الدين) ؟ ! فجاءت جيوش وأساطيل إنجلترا وفرنسا، بل وجاء ملوكهما، واستمر الصراع سنوات، حتى انتهى مرحليًا بالهدنة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد (١١٥٧ – ١١٩٩م) ملك إنجلترا لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر –في شعبان سنة ٥٨٨هـ/ سبتمبر سنة ١١٩٢م.

• وأنفق صلاح الدين أوقات السلم في تعمير ما خربته الحرب، وبناء ما هدمه الصليبيون؛ فأقام في ميادين العمران العلمي والفكري والتعليمي والاقتصادي ركائز الإحياء التي تنمي روح الانتماء وتزكي عوامل التقدم على درب استكمال التحرير لما بقي في الأسر من حصون وقلاع، وفي إعمار القدس كان صلاح الدين يحمل بنفسه الأحجار مع البنائين !

ثم سار إلى دمشق، وفيها مرض بـ(الحمى الصفراوية)، وتوفي في ٢٦ صفر سنة ٥٨٩م مارس سنة ١١٩٣م ليدخل، لا في (تاريخ الأمة وحده، بل وفي (ضميرها)، كواحد من أعظم عظماء الإسلام وأبرز أبطال فتوحاته منذ عصر صدر الإسلام وحتى هذا التاريخ.

الأسر المعاصر للقدس:

لكن القوى الغربية، التي حركت ونظمت وتولت الغزوة الصليبية قد عادت، في مرحلة لاحقة، وفي طور جديد، لتحقيق ذات المقصد القديم (انتزاع الأرض التي تدر سمنًا وعسلًا) ! ! واحتكار قداسة القدس لها وحدها، وإهدار قداستها لدى الآخرين.

فبدأت هذه القوى الاستعمارية، بعد اقتلاع الإسلام من الأندلس، وإسقاط (غرناطة) (٨٩٧هـ / ١٤٩٢م).

مرحلة التطويق للعالم الإسلامي:

• ففي ذات العام الذي سقطت فيه غرناطة خرجت حملة (كريستوف كولومبس) لاكتشاف طريق تطويق عالم الإسلام.

• وعندما ضل (كولومبس) الطريق، فذهب إلى القارة الأمريكية، خرجت الحملة البرتغالية، لتحقيق الهدف الذي لم يحققه (كولومبس) فكان اكتشاف البرتغاليين لطريق الالتفاف حول العالم الإسلامي، عبر ميناء (رأس الرجاء الصالح) (٩٠٣هـ / ١٤٩٧م)، أي بعد خمس سنوات من سقوط غرناطة !

• وعلى شواطئ الهند المسلمة حدثت المواجهة بين البرتغاليين وبين الجيش المصري، بقيادة المماليك (٩١٠هـ /

١٥٠٤م)، وهي المواجهة التي انتصر فيها البرتغاليون على المماليك.

● ومع تزايد نشاط حملات (التطويق)، حول شواطئ الهند، وفي بحر العرب، والخليج العربي، والبحر الأحمر، وفي ظل ضعف الدولة المملوكية، كان الاتجاه العثماني إلى الشرق والجنوب، وإدخال العالم العربي في كنف العسكرية العثمانية (٩٢٣هـ / ١٥١٧م) لمواجهة مخاطر هذا التطويق الذي نجح في تثبيت أقدام الغزاة الأوربيين في إندونيسيا والهند والفلبين، (في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي).

مرحلة اختراق القلب:

وبعد نجاح (مرحلة التطويق) للعالم الإسلامي بدأت مرحلة ضرب (القلب) في هذا العالم.

● فعبر إذكاء الصراع بين (الصفويين - الشيعة)، في إيران، وبين الدولة العثمانية، القوة الضاربة والسياج العسكري للعالم الإسلامي، وهو الصراع الذي اصطنعته أوروبا ورعت حروبه الدموية، ثم شغل واستنزاف العسكرية العثمانية في صراع (إسلامي - إسلامي)! الأمر الذي فتح الباب لضرب (قلب العالم الإسلامي)، بعد أن تمت (مرحلة التطويق).

● فكانت حملة بونابرت على مصر (١٢١٣هـ / ١٧٩٨م).

● وبعد فشل الحملة الفرنسية على مصر، جاءتها حملة فريزر - الإنجليزية (١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م).

● ثم كان احتلال الجزائر من قبل فرنسا (١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م).

● واحتلال عدن، من قبل إنجلترا (١٢٥٤هـ / ١٨٣٨م).

● ومنع مصر بقيادة محمد علي باشا من تجديد شباب الدولة العثمانية، بمعاهدة لندن (١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م).

● واحتلال فرنسا لتونس (١٢٩٨هـ / ١٨٨١م).

● ونجاح الإنجليز في احتلال مصر (١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م).

● واحتلال إيطاليا لليبيا (١٣٢٩هـ / ١٩١١م).

● واحتلال فرنسا للمغرب (١٣٣٠هـ / ١٩١١م).

● وتقسيم جميع أقاليم الخلافة الإسلامية بين القوى الاستعمارية، وفق معاهدة (سيكس - بيكو) (١٣٣٤هـ / ١٩١٦م)، وكانت القدس -رمز الصراع- من مقاصد هذا التقسيم، حتى إن (سيكس) - الإنجليزي، قد أقيم له في قريته (سيلدمير) بمقاطعة (يوركشاير) نصب تذكاري، يقف فيه «مزينًا بالنحاس، محصنًا بالدروع، متقلدًا سيفًا، وتحت قدميه يرتمي مسلم، فوقه لفافة كتب عليها: «ابتهجي يا قدس»!

● واحتلال إنجلترا للعراق (١٣٣٥هـ / ١٩١٧م).

● وإصدار وعد بلفور الذي فتن الشراكة (الصهيونية - الغربية) في هذه الحملة الاستعمارية (١٣٣٦هـ / ١٩١٧م).. تلك الشراكة التي سبق ودعا إلى إقامتها نابليون، أثناء حصاره لمدينة (عكا) (١٢١٣هـ / ١٧٩٩م).

● واحتلال الإنجليز للقدس (١٣٣٦هـ / ١٩١٧م)، ويومها قال الجنرال الإنجليزي (اللنبي): «اليوم انتهت الحروب الصليبية»..

ونشرت مجلة (بنش Punch) البريطانية رسمًا كاريكاتوريًا تحت عنوان: (آخر حملة صليبية) وفي الرسم يظهر ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩-١١٩٩م) وهو يحدق في القدس، قائلًا: «أخيرًا تحقق حُلمي»!

- واحتلال فرنسا لدمشق (١٣٣٨هـ / ١٩٢٠م) عندما ذهب الجنرال الفرنسي (جورو) إلى قبر صلاح الدين الأيوبي، فركله بقدمه، وقال: «ها نحن عدنا يا صلاح الدين»!
- ومعاهدة (لوزان) (١٣٤١هـ / ١٩٢٣م) بين (الحلفاء الغربيين) وبين تركيا، تلك التي قَنَّنَتْ لطيِّ صفحة الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة (١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م)، وإقامة إسرائيل؛ تجسيدًا للشراكة (اليهودية - الغربية) في استعمار وطن العروبة وعالم الإسلام (١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م).
- واحتلال كامل القدس، وبدء تهويدها (١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م).
- ليصل الغرب إلى الاحتفال بذكرى خمس مئة عام على بدء هذه الحقبة من حقب هذا الصراع (التاريخي - الحضاري)، بإقامة الدورة الأولمبية في برشلونة، على أرض الأندلس في ذكرى اقتلاع الإسلام، وإسقاط غرناطة، ولقد كانت البداية (٨٩٦هـ / ١٤٩٢م)، وكان الاحتفال (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م)!

ومع الاحتفال بذكرى مرور خمس مئة عام على اقتلاع الإسلام من الطرف الغربي لأوروبا، بدأت في نفس العام (١٩٩٢م) حرب البوسنة، لاقتلاع الإسلام من قلب أوروبا؟!، وهي الحرب التي حدد وزير الإعلام الصربي موقعها في صفحات كتاب هذا الصراع التاريخي، عندما قال: «نحن طلائع الحروب الصليبية الجديدة»!

وبرزت القدس، في هذه الحقبة من حقب هذا الصراع، كما كانت في الحقبة الصليبية، باعتبارها (الرمز) والمقصد والمفتاح!

فتهويدها واحتكار قداستها، قائم على قدم وساق، وإذا كانت ذاكرة الأمة، بواسطة ثقافتها، قد ظلت واعية بمكانة القدس في هذا الصراع التاريخي لتعدد المراحل والحلقات، فإن المهمة المعاصرة لثقافتنا الوطنية والقومية والإسلامية هي إبقاء ذاكرة الأمة على وعيها الكامل بمكانة هذا القدس الشريف؛ وذلك حتى يطلع الفجر الجديد، بالناصر صلاح الدين الجديد!

لقد درج الناس -عامة الناس- على تسمية قضية القدس وفلسطين: (أزمة الشرق الأوسط) والمطلوب هو الوعي (بتاريخ أزمة الشرق الأوسط) هذه.

ولقد أراحنا الكاتب والقائد الإنجليزي (جلوب باشا) عندما قال: «إن مشكلة الشرق الأوسط قد بدأت منذ القرن السابع للميلاد»!! أي منذ ظهور الإسلام!!

***